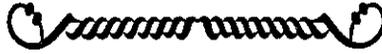


## نظام الحكومة في عهد عبد الرحمن الداخل



وقد اتبع عبد الرحمن الداخل سنة أسلافه بالمشرق في تبسيط الرسوم والإجراءات والنظم، وأنشأ منصب الحجابة، ولكنه لم يُنشئ مناصب الوزارة، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه في القيام بمهام الحكم، وليست لهم سمة الوزارة، وإنما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى.

واختار أعوانه في البداية من أصدقائه الذين استقبلوه يوم مقدمه، وآزروه وقاتلوا معه، فولّى حجابته تمام بن علقمة، ثم ولاها من بعده ليوسف بن نجت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان، ثم عبد الكريم بن مهران الغساني، ثم عبد الرحمن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة، وولاها في آخر أيامه لمنصور الخصبى، فلم يزل في حجابته حتى توفى، وعيّن لمشورته أبا عثمان بن عثمان كبير أنصاره، وصهره عبد الله بن خالد، فكانا لفترة طويلة دعامة حكومته، وكان من أعوان حكومته أيضاً جدار بن عمرو، وأبو عبده حسّان بن مالك زعيم إشبيلية، وسُهَيْد بن شهيد، وعبد السلام بن بسيل الرومي، وهما من موالي بني أمية، وثعلبة بن عبيد الجذامي الذي ولاه سرقسطة فيما بعد، وعاصم بن مسلم الثقفي وهو من خاصة أنصاره يوم المسارة<sup>(١)</sup>.

وولى قيادة عسكره مولاه بدر، وتمام بن علقمة، وعبد الملك المرواني، وثعلبة ابن عبيد، وغيرهم من خاصة عصبته.

وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش في معظم الوقائع والحروب التي نشبت بينه وبين خصومه كما رأينا، وولى عبد الرحمن على الكور والثغور جماعة مختارة من أصدقائه، وذوي رحمه الوافدين عليه.

(١) نفع الطيب (ج١، ص ١٥٦).

## خلاصة الأمر:

فإن حكومة عبد الرحمن الداخل كانت تقوم في البداية على العصبية والموالة، وكانت عربية في بنائها وروحها، ولكن الخصومة المستعرة التي شهدتها زعماء القبائل والبطون المختلفة على عبد الرحمن، والثورات المستمرة التي عملوا على إضرارها من حولها، ونكثهم المتكرر بعهدهم، حمله على الشك والريبة بالعرب والحذر منهم، فمال عنهم إلى اصطناع الموالي والبربر، ولاسيما بربر العُددة (المغرب)، وحشد حوله من الموالي والبربر والرقيق آلفاً مؤلفة؛ لتكون له وقت الحاجة عوناً يركن إليه ويثق به، وكان ذلك قاعدة للسياسة التي استمر عليها خلفاء عبد الرحمن، وساروا على نهجها من بعده، والتي بلغت ذروتها في عهد عبد الرحمن الناصر - كما سنرى - (١).

## سياسة عبد الرحمن نحو نصارى العرب والشمال:

كانت سياسة عبد الرحمن الداخل نحو نصارى العرب والشمال سياسة اعتدال ومهادنة، ولم يفكر عبد الرحمن في غزو أرض النصارى؛ لانشغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية، وكان يُرحب بعقد السلم والمهادنة معهم. وقد أصداً عبد الرحمن لجيرانه نصارى قشتالة عقد أمان يؤيد ما قيل عن سياسة المهادنة والأمان والسلم معهم، وجاء في هذا العقد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة، ومن تبعهم من سائر البلدان. كتاب أمان وسلام، وشهد على نفسه أن عهده لا يُنسخ ما أقاموا على تادية عشرة آلاف أوقية من الذهب، وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف

(١) المصدر السابق (ج٢، ص ٦٧).

رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة، ومثلها من الرماح في كل عام إلى خمس سنين، كُتِبَ بمدينة قرطبة ثلاث من صفر عام اثنين وأربعين ومائة (٧٥٩م) (١).

### مواهب عبد الرحمن الداخل الإدارية،

كان هذا الرجل يتمتع بمواهب إدارية؛ فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة، وأن يجمع كثيراً من ضروب الفساد والبغي، وأن يؤدي هيبة القانون والنظام، ولما توطد سلطانه وخبأ ضرام الثورة نوعاً ما، استطاعت الأندلس أن تتمتع في ظل حكومته بأمن وطمأنينة ورخاء لم تعرفها منذ زمن بعيد، ولو لم يشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورات والفتن الداخلية لاستطاع - كآسلافه - الفاتحين الأوائل، أن يبعث الأندلس خلقاً جديداً، وأن يجعل منها حديقة يانعة، على أنه ذلل الصعب ومهد الطريق لعقبه، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة، التي غدت على يد بنيه أعجوبة العصور الوسطى.

ويحدث المؤرخون ومنهم: ابن حيان مؤرخ الأندلس عن مقدرة عبد الرحمن الداخل وكفايته الإدارية، فيقول:

«إنه دَوَّنَ الدوواين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجنَّد الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آتته، وأخذ للسلطان عدته» (٢).

(١) انظر «الإحاطة» لابن خطيب.

(٢) «نفع الطيب» (ج١، ص ١٥٥).

### عناية عبد الرحمن الداخل بالجيش:

بطبيعة الحال فإنّ سند عبد الرحمن وسلاحه القويّ يتمثل في جيشه الذي استخدمه في توطيد أركان دولته، فقد عنى عبد الرحمن بالجيش عناية فائقة، ورعاه رعاية خاصة، فجند المتطوعة والمرتزة من كل صوب، وبلغت قواته مئة ألف مقاتل، هذا عدا حرسه الخاص الذي أنشأه من الموالي والبربر والرقيق، حسبما قدمنا، ويبلغ زهاء أربعين ألفاً<sup>(١)</sup>.

كذلك عنى عبد الرحمن في أواخر عهده بأمر البحرية (القوات البحرية) فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن في بعض الشغور النهرية والبحرية، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وأشبيلية وغيرها.

وقد قيل أن عبد الرحمن لما توطد ملكه، وكثرت قواته وعدّته، فكّر في استرداد ملك بني أمية بالشام، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس، وأيده في ذلك خاصة أسرته ومواليه، وكان ذلك في سنة (١٦٣هـ)، ولكن اضطراب الثورة في سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم، وتوفي قبل أن تسنح فرصته لتنفيذه<sup>(٢)</sup>.

### ♦ عنايته بقرطبة:

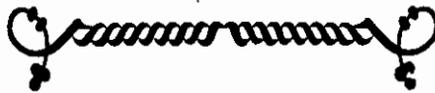
أصبحت قرطبة حاضرة (عاصمة) الدولة الأموية الجديدة، فكان لابد من الاعتناء بها، فقام عبد الرحمن بتحسينها وتزيينها بالمنشآت الضخمة الفخمة، والرياض البانعة، وكان أول ما أنشأ بها في عهده منية (مدينة) الرصافة وقصرها الرائع، وكان قصر الإمارة بناءً قديماً ساذجاً، يرجع إلى عهد القوط، فرأى عبد الرحمن أن يُنشئ ضاحية ملوكية جديدة، تليق بحاضرة ملكه، وتُعيد

(١) «نفع الطيب» (ج٢، ص٦٧).

(٢) «نفع الطيب» (ج١، ص١٥٦، ج٢، ص٧٦).

ذكرى مجد وبهاء بني أمية بالمشرق؛ فأنشأ في شمال غربي قرطبة قصرًا فخماً تحيط به حدائق زاهرة، وجلب إليه مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وإفريقية، وسمى تلك الضاحية الجديدة «الرصافة» تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام، واتخذها مقاماً ومنتزهاً ومركزاً للإمارة، وكانت حدائق الرصافة أمماً لحدائق الأندلس، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية<sup>(١)</sup>.

وفي سنة (١٥٠هـ) بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد، ولكنه توفي قبل إتمامه، فآتمه ولده هشام، وزاد فيه من بعده ملوك بني أمية، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس، وبلغ ما أنفق عليه عبد الرحمن الداخل وحده زهاء مئة ألف دينار<sup>(٢)</sup>، وهذا الإنفاق يدل على مدى سعة المسجد، واتساع مساحته، وفخامة إنشائه؛ لأن عبد الرحمن لم يدخر مالا في سبيل إخراج هذا المسجد كتحفة معمارية، وقد أنشأ عبد الرحمن الداخل أيضاً في قرطبة داراً للسكّة، تُضرب فيها النقود على نحو ما كانت تُضرب في دمشق أيام بني أمية ورزناً ونقشاً.



(١) «نفع الطيب» (ج١ ص ٢١٧).

(٢) المصدر السابق (ج٢، ص ٦٧).

## عبد الرحمن الداخل الإنسان



كان عبد الرحمن الداخل جواداً كريماً، جمّ البساطة والتواضع، يؤثر لبس البياض ويعتم به، يُصلي بالناس أيام الجمع والأعياد، ويحضر الجنائز ويصلي عليها، ويعود المرضى، ويزور الناس ويُخاطبهم، ولم يخرج على هذه الخلال والصفات إلا في أواخر عهده، حينما نصحه بعض خاصته بالترفع، استبقاء لهيبة الملك، والحذر من بوادر العامة وشر المتآمرين<sup>(١)</sup>.

وقد كان في نقش خاتمه «عبد الرحمن بقضاء الله راض»، و«بالله يتق عبد الرحمن، وبه يعتصم» مما يدل على ذلك التواضع الجم<sup>(٢)</sup>، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور، وما إلى ذلك من ألقاب.

### أولاً - عبد الرحمن الشاعر والأديب:

كان عبد الرحمن شاعراً جيّد النظم، ناثراً فصيح البيان، قويّ الترسل، عالماً بالشرعية، وكان يعتبر من أعظم بني مروان مكانة في البلاغة والأدب<sup>(٣)</sup>، وقد انتهت إلى المؤرخين بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته، ومن ذلك رسالة موجزة وجهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه:

«أما بعد، فدعني من معارض المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدّن يداً إلى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لائقين بناتها على رصف المعصية، نكالا بما قدمت يدك، وما الله بظلام للعبيد»<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر السابق (ج ٢ ص ٦٧)، وانظر البيان المغرب (ج ٢ ص ٥٠).

(٢) المدر السابق.

(٣) «البيان المغرب» (ج ٢، ص ٥٠).

(٤) «نفع الطيب» (ج ٢ ص ٦٨).

ومنها رسائله إلى مولاة بدر، يزجره عن تمرده وانحرافه، وقد كتب إليه حين الحج في طلب العفو والمنة:

«لتعلم أنك لم تنزل بمقتك حتى ثقلت العين عن طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع لكلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر»<sup>(١)</sup>.

ومن أقواله لأصحابه يوم المسارة يشحذ همهم للقتال:

«هذا اليوم هو أس ما يُبنى عليه، إما ذلّ الدهر وإما عزّ الدهر؛ فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تريحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون»<sup>(٢)</sup>.

### ثانياً - عبد الرحمن الشاعر القوي الرقيق الخيال:

أورد المؤرخون من شعره الكثير، فحينما أخذه الحنين إلى ربوع الشام، أنشد يقول في تأثر شديد:

أيتها الركب الميمم أرضي	أقرأ من بعضي السلام لبعضي
أن جسمي - كما علمت - بأرض	وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وحين بلغه أن بعض أصدقائه يمين عليه، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك إليه، قال:

سعدي وحزمي والمهند والقنا	ومقادير بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب	نجم يُطالعنا ونجم آفل

(١) المصدر السابق (ج ٢ ص ٦٩).

(٢) المصدر السابق (ص ٧٠).

والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا      أيروم تدبير البرية غافل  
ويقول قوم سعده لا عقله      خير السعادة ما حماها العاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبد الملك في مجلس عبد الله  
ابن عليّ جلّاد بني أمية، ونعيه عليه إثمه في حقهم وسفكه لدمائهم، وفقده  
لحياته ثمناً لجرأته، فأنشد عبد الرحمن:

شتان من قام ذا امتعاض<sup>(١)</sup>      فشال ما قال واضمحلا  
ومن غدا مصلتاً لغرم<sup>(٢)</sup>      مجرداً للعداة نصلاً  
فجباب قفراً وشق بجرأ      ولم يكن في الأنام كلاً  
فبني ملكاً وشاد عزاً      ومنبراً للخطاب فصلاً  
وجنّد الجند حين أودى      ومصرّ المصر حين أجلى  
ثم دعا أهله جميعاً      حيث انتأوا أن هلم أهلاً

وحينما رأى بروض الرصافة - وهي ضاحيته الجديدة التي أنشأها - عندما  
رأى نخلة متفردة، أثار المنظر في نفسه ذكريات وشجون، فأنشد يقول:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة      تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل  
فقلت شبيهي في التغرب والنوى      وطول التنائي عن بنيي وعن أهلي  
نشأت بأرض أنت فيها غريبة      فمثلك في الإقصاء والمنتأي مثلي  
سقتك غواذي المزن من صوبها      الذي ويستمرئ السماكين بالويل<sup>(٣)</sup>

(١) بريد الغمر بن يزيد .

(٢) بريد نفسه (عبد الرحمن الداخل) .

(٣) «الحلة السبراء» (ص ٣٤) .

## عبد الرحمن المقتري عليه



هناك حقيقة لا يُنكرها المؤرخون، وهي أن عبد الرحمن قاعدة لسلوكه، والقسوة ركيزة لسيرته، ولكنه كان معذوراً في ذلك، فقد كان هذا العنف، وتلك القسوة، سمة عامة يتميز بها ذوو الجاه والسلطان في تلك الفترة من الزمان، ولكنه لا يعتقد أنه تمثل بالملوك في ذلك وهو الذي كان يُصلي بالناس الجمع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى، ويُكثر مباشرة الناس، والمشي بينهم<sup>(١)</sup>، ومن كانت أخلاقه هكذا، فإنه لا يتغير عنها إلا إذا كان مخادعاً، يُري الناس من سيرته ما يخفى عنهم منها؛ حتى يتمكن، ثم يعود إلى طبيعته، وعبد الرحمن لم يكن كذلك، بل ظلّ على ذلك حتى نصحه خاصته - كما ذكرنا - آنفاً بالآلا يخرج للناس، وبيئذ في ذلك، فإن الناس لا تؤمن بوادهم على الملوك والرؤساء، وكان ذلك نتيجة أن استوقفه رجل من الرعية يطلب الإنصاف من القاضي، كما رواه صاحب «نفع الطيب».

وفي دفاعهم عن شخصية عبد الرحمن، وما أثير حوله من عنف وقسوة تحدّث بعض المؤرخين فقالوا:

«لقد اكتسب عبد الرحمن العنف والقسوة من أخلاق العرب أنفسهم الذين عاشوا معه في تلك البلاد، فقد وجدهم - إلا من رحم ربي - مخادعين، يُظهرون السلامة، ويُضمرون العداوة، يأمن الرجل منهم ويوليه، فإذا اطمأن في مجلسه، ثار عليه، وخرج من طاعته، فكان لا بد أن يُغيّر سياسته في حكم البلاد، كان عليه أن يأخذ بالظنّه، وأن يرتاب في كل من حوله، حتى الرجال المخلصين له

(١) نفع الطيب، (٣/٢٧).

ولدولته، كان عليه أن يستعمل العنف؛ ليردع الخونة، ويلتزم القسوة ليزجر المارقين، ولو لم يستعمل عبد الرحمن هذه السياسة لانقضت الدولة، وذهبت في كل واد»<sup>(١)</sup>.

وكان عبد الرحمن أمام موقف شديد الحساسية وشديد الخطورة، فهو يؤسس دولة من عدم، ويُقيم أمة رآها مبعثرة، ويرأب صدعاً، ويُقيم معوجاً، فإذا لم يكن العنف وسيلة في قوم لهم أطماع، ونفوس فيها حقد، لم يستقم الأمر، ولم تقم الدولة، ولم يذكر التاريخ عبد الرحمن إلا بالضعف، وعدم القدرة على إقامة الدولة.

لقد وجد عبد الرحمن الفوضى ضاربة أطنابها في أنحاء البلاد المختلفة، كل والٍ يثور في ولايته ليستقل بها، ويحيك المؤامرات؛ لينفصل عن باقي الأقاليم، ولا يجد من يُنازعه، ووجد التنافس على أشده بين القبائل المختلفة، هذا فهريّ، وهذا يمينيّ، هذا عدناني، وذلك قحطانيّ، كل قبيلة تُنافس الأخرى، وتتسابق معها في طريقة حكم البلاد، كما وجد الحقد والحسد يملآن النفوس بين زعماء هذه القبائل، وحكّام هذه المدن، وتلك الثغور.

لقد كانت البلاد منقسمة على نفسها، مما جعل البلاد شيعاً وأحزاباً، وأتاح ذلك الفرصة لحكام البلاد المسيحية في شمال البلاد، أن تتخذ لنفسها مراكز قوية لتأمين حدودها مع المناطق الإسلامية، بل احتلال مناطق حيوية، يُهددون بها البلاد الإسلامية، وإلى جانب ذلك، كانت المؤامرات لإتاحة الفرصة للتدخل الخارجي من جانب الخلافة العباسية من جهة والفرنج من ناحية أخرى، ولولا سرعة تصدي عبد الرحمن وسياسته الحكيمة في مواجهة هذه الفوضى لوقعت

(١) انظر «دولة الإسلام في الأندلس» ق ١٤ ١٤ (ص ٣٩١) وما بعدها. وانظر «الأمويون في الشرق والغرب» د/ محمد سيد الوكيل (ج ٢ ص ١٥٤) وما بعدها.

البلاد كلها في قبضة الإفرنج الذين كانوا يترصدون بالإسلام الدوائر، ويتحينون بها الفرص.

وكذلك ثورات البربر، تلك هي حال البلاد، فوضى وتمزق، وحقد وحسد، وتمرد وعناد، ولولا ما فُطر عليه عبد الرحمن من الشهامة والشجاعة، وسرعة النهضة لمقاومة التمرد لضاعت الأندلس، وضاع عبد الرحمن؛ فقد كان يستعمل العنف والقسوة في حال لا يُجدي فيه إلا العنف والقسوة، كما أمر بقتل ابن أخيه حين تأمر على الدولة، وأمر بنفي بدر مولاة حينما تكلم بكلام لا يليق بحال الإمارة، وهكذا كان يفعل بمن يستحقون العقوبة<sup>(١)</sup>.  
أما مع غير هؤلاء، فقد كان لطيفاً مداعباً.

فقد روى المقرئ أنه لما استتب له الأمر بالأندلس أتاه رجل بربري هو أبو قرة، وكان أبو قرة هذا قد آوى عبد الرحمن والخلافة العباسية تبحث عنه، فأحسن إليه وحظى عنده وأكرم زوجته - نكفات - البربرية التي خباته تحت ثيابها، عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبد الرحمن مداعباً، حين استطلت بظله في الأندلس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا نكفات على ما كان بي من الخوف، وأزعجتني بانتن من ريح الجيف.

فكان جوابها مسرعة: بل كان والله يا سيدي منك خرج، ولم تشعر به من فرط فرحك، فاستظرف جوابها<sup>(٢)</sup>.

كانت هذه البلاد في حاجة إلى شخصية فذة شجاعة عبقرية، مثل عبد الرحمن الداخل، تحكمها وتدير شؤونها، كان عبد الرحمن فذاً في شجاعته، وفي تفوقه الإداري، وفي سلوكه وأسلوب حياته، بل قل في جميع نواحي الحياة.

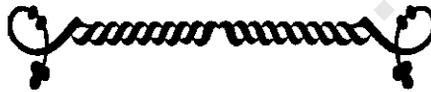
(١) المصدر السابق (ص ١٥٧).

(٢) نفع الطيب ٣/٢٧.

كان - رحمه الله - فرداً حين دخل الأندلس، وكان حدثاً لم يتجاوز العشرين من عمره، وكان يُقاوم دولة ترامت أطرافها، واتسعت شعابها، ومع ذلك فقد استطاع أن يعبر إلى الأندلس، دون أن يُعيقه حداثة سنه، ولا مقاومة الأعداء، ونجح في إقامة دولة قوية مرهوبة الجانب، عزيزة الأركان، وخاض في ذلك معارك عنيفة.

كانت مدة الأمراء بالأندلس قبل عبد الرحمن الداخل منذ فُتحت إلى يوم هزيمة أميرها يوسف الفهري والصَّمِيل سناً وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام؛ فقد كان الفتح لخمس خلون من شوال سنة (٩٢ هـ - ٧١١ م) وكانت هزيمة يوسف لعشر خلون من ذي الحجة سنة (١٣٨ هـ - ٧٥٦ م)<sup>(١)</sup>.

وظلّ يوسف الفهري أميراً على الأندلس تسع سنين وتسعة أشهر، وانتقلت إمارة الأندلس إلى عبد الرحمن الداخل، بعد هزيمة يوسف الفهري والصَّمِيل، حيث استفحل أمره بها، ودانت له البلاد، ولعقبه من بعده إلى بعد الأربعمائة، هذا هو صقر قريش وأيامه العظيمة في الأندلس.



## أبناء الداخل

### هشام بن عبد الرحمن بن معاوية



توفي عبد الرحمن الداخل في الرابع والعشرين من (ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ - ١٢ أكتوبر سنة ٧٨٧م) وهو في نحو الثامنة والخمسين من عمره، بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً ملئها الخطوب والفتن، فخلفه ولده هشام بعهدٍ منه لأيام قلائل من وفاته.

#### التعريف بهشام :

هو هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وُلِدَ بقرطبة لأربع خلون من شهر شوال سنة (١٣٩هـ - ٧٥٧م) ويُعرف بالرضا لعدله وفضله، ويكنى أبا الوليد<sup>(١)</sup>.

أمه أم ولد تُدعى حُلل، كانت بارعة في الحسن، رائعة الجمال، فأحبها عبد الرحمن، وكانت أحب نسائه إليه، وأقربهم إلى قلبه، وأعلاهم كلمة عنده، فيُحكى أن أم عثمان زوجة يوسف الفهري، حضرت إليه بصحبة ابنتيها، تطلبان الأمان والحماية من الأمير عبد الرحمن بعد أن تمّ له النصر على زوجها، ودخل قرطبة، قالت له: «يا ابن عمّ كنّ كريماً معنا كما كان الله كريماً معك»، فتأثر عبد الرحمن من كلامها، ومما أصابها هي وبناتها، وهنّ جميعاً لهن قرابة وصلة بعائلته، بنسب وقرابة، فأكرمهن عبد الرحمن، وردّ إليهن ما كان عسكره قد استولوا عليه منهن من مجوهرات، وأنزلهن منزلة حسنة.

وتعبيراً عن سرورهن بفعل الأمير، قدمت له إحداهن هدية متواضعة، هي إحدى جواربها الجميلات، وهي شابة تدعى حُلل<sup>(٢)</sup>.

(١) «الحلة السيرة» لابن الأثير (٤٢/١).

(٢) «الأمويون أمراء الأندلس الأول» أحمد إبراهيم الشعراوي (ص ١٣٩).

كان هشام أبيض أشهل، مشرباً بحمرة، وبعينيه حَوْلٌ، وكان نقش خاتمه «بالله يتقي هشام وبه يعتصم». وصاحب شرطته: عبد الغفار بن أبي عبده، وكاتباه اثنان: فطيس بن عيسى، وخطاب بن يزيد، وقاضيه: المصعب بن عمران، وحاجبه: عبد الرحمن بن مغيث.

### هشام ولي العهد والأمير بعد أبيه:

كان الأمير عبد الرحمن الداخل قد عهد إلى أحد ولديه: هشام وسليمان، وكان هشام والياً على ماردة حين وفاة أبيه، وأما سليمان، فكان والياً على طليطلة، فلما حضرت عبد الرحمن الوفاة، كان ابنه عبد الله المعروف بالبكنس موجوداً في القصر، فقال له أبوه: من سبق إليك من أخويك فارم له بالخاتم والأمر، فإن كان هشاماً فله فضل دينه وعفافه، واجتماع الناس عليه، وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنّه ونجدته وحب الشاميين له<sup>(١)</sup>.

وكان أبوهما عبد الرحمن قد استوزرهما تنويهاً بشأنهما، فكانا يركبان إلى القصر متناوبين لا يجتمعان.

فإذا كان يوم هشام تأهب حاضروا المجلس من كبار أهل المملكة لما سيقولون، فيفيضون في الحديث إلى إنشاد شعر، أو ضرب مثل، أو ذكر يوم من أيام العرب، أو ذكر حرب، أو اجتلاب حيلة أو حكاية تدبير.

وإذا كان يوم سليمان خلا المجلس من ذلك كله، وانبسط الحاضرون في غث الأحاديث، وأخذوا في المداعبة<sup>(٢)</sup>.

وفي سبيل اطمئنانه عليهما كان الداخل يسأل عنهما كثيراً، فيقول الناس: إن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلاً أدباً وتاريخاً، وذكراً لأمور الحرب، ومواقف الأبطال، وإذا حضر سليمان امتلاً المجلس سخفاً وهذياناً، فيكبر هشام في عينيه، بقدر ما يصغر سليمان.

(١) البيان المغرب، (٦١/٢).

(٢) الحلة السبراء، (٤٢/١).

وكان عبد الرحمن الداخل يُريد التأكد بنفسه من كل ما يسمعه عن ولديه هشام وسليمان، فقال الداخل يوماً لابنه هشام: لمن هذا الشعر؟ وتعرف فيه من أبيه شمائلًا ومن خاله أو من يزيد ومن حُجْرٍ سماحة ذا وبرًا ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكرُ فقال هشام لأبيه: يا سيدي، لامرئ القيس ملك كندة، وكأنه قاله في الأمير - أعزّه الله - ؛ فضمّه عبد الرحمن إليه؛ استحسانًا بما سمع منه، وأمر له بإحسان كثير، وزاد في عينه.

ثم انفرد بسليمان، وقال له: لمن هذا الشعر؟ وأنشده البيتين، فقال: لعلهما لأحد أجلاف العرب، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب. فاطرق عبد الرحمن، وقد علم ما بين الاثنين من المزية<sup>(١)</sup>. لهذا كان هشام أقرب إلى قلب والده عبد الرحمن، وكان يتمنى أن تؤول الوزارة إليه، غير أنه لم يحب أن يُعيّن هشامًا؛ حتى لا تقع الضغينة بين الأخوين، وحتى لا تكون فتنة، فترك الأمر لعبد الله، من يلحق به أولاً يعطى الخاتم والأمر وتفوض إليه مقاليد الحكم.

وكانت وفاة عبد الرحمن وهشام والِ على ماردة يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر<sup>(٢)</sup>، وقيل غير ذلك.

ووصل هشام الخبر، فأسرع في السير، حتى وصل قرطبة بعد ستة أيام، فبايعه أخوه عبد الله، وسلّمه خاتم الإمارة، وبايعه العامة والخاصة<sup>(٣)</sup>. وكان ذلك في يوم الأحد غرة جمادى الأولى سنة (١٧٢ هـ - ٧٨٧ م)، وكان عمره حينئذ ثلاثين سنة<sup>(٤)</sup>، وعلم أخوه سليمان بذلك، فحشد الحشود، وجنّد الأجناد، وهو يُريد قرطبة مخالفاً لأخيه، فلما وصل - جيّان - خرج إليه هشام في أجناده، والتقى الجيشان بجهة بملج، ووقعت بينهما حرباً قاسية - سنعود إليها - .

(١) «نفح الطيب» (١/٣٣٤).

(٢) «الحلة السيرة» (١/٤٢).

(٣) «البيان المغرب» (٢/٦١).

(٤) «الأمويون أمراء الأندلس» الشعراوي (ص ١٣٩).

## صور من حياة هشام

### مع التنجيم والمنجمين



كان للمنجمين عند الخلفاء والملوك والأمراء منزلة سامية، بشرط أن يخبروهم بما يريدون، أو يقولون لهم ما يشتهون، عندئذ ترتفع منزلتهم، وتعلو مكانتهم، والغريب أن الملوك بعامة يثقون فيما يقوله المنجمون، ولا يتنازلون عما سمعوه منهم، وإن كان بعضهم يؤمن بأن الغيب بيد الله، لا يعلمه أحد سواه، ولكنهم مع ذلك لا يتنازلون عن تقديرهم للمنجمين، ويحبون أن يستمعوا إليهم، ويسمعوا منهم، ومما جاء في «نفح الطيب» للمقري<sup>(١)</sup>: أن من هؤلاء هشام بن عبد الرحمن، أمير الأندلس الأموي، فإنه مع مطلع ولايته للأندلس، بعث في طلب «الضبي» المنجم المشهور، أرسل إليه في المدينة التي كان يُقيم فيها - وهي الجزيرة الخضراء - وأحضره إلى قرطبة، وكان الضبي حاذقاً في علوم النجوم، فلما حضر الضبي إلى هشام، خلا به، وقال له: يا ضبي، لست أشك أنه قد عناك من أمرنا إذ بلغك ما لم يدع تجديد النظر فيه، فأنشدك الله إلا ما أنبأتنا بما ظهر لك فيه. فلجلج وقال: اعفني أيها الأمير؛ فإنني ألمت به، ولم أحقق النظر فيه؛ لجلالته في نفسي.

فقال له: قد أحلتك لذلك، فتفرغ للنظر فيما بقي عليك منه.

ثم أحضره بعد أيام، فقال: إن الذي سألتك عنه جدّ مني، مع أنني - والله - ما أثق في حقيقته، إذ كان من غيب الله الذي استأثر به، ولكنني أحب أن أسمع ما عندك فيه؛ فالنفس طلعة، وألزمه الصلّة أو العقوبة.

(١) «نفح الطيب» (١/٣٣٤).

فقال الضبي: اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقر ملكك، سعيداً خبرك، قاهرأ لمن عاداك، إلا أن مدتك فيه - فيما دل عليه النظر - تكون ثمانية أعوام أو نحوها.

فأطرق هشام ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: يا ضبي، ما أخوفني أن يكون التذير كلمني بلسانك، والله لو أن هذه المدة كانت في سجدة لله - تعالى - لقلت طاعة له. ووصله وخلع عليه، وزهد في الدنيا، والتزم أفعال البر<sup>(١)</sup>.

اعتمد هشام هذه النبوة، ورأى أن يقضي هذه المدة في الصلاح والتقوى وعمل الخير، والجهاد في سبيل الله؛ ولذلك فقد كان عاقلاً حازماً، وافر الشجاعة والعزم، كثير العدل والتقوى، جمّ التواضع والرفق.

وتُشيد الرواية الإسلامية بميل صفاته وخلاله، وتُنوّه بالأخص بورعه وتواضعه، وحبه للخير، فيقول لنا ابن عبد ربه، صاحب «العقد الفريد» أنه: «كان أحسن الناس وجهاً، وأشرفهم نفساً، الكامل المروءة، الحاكم بالكتاب والسنة، الذي أخذ الزكاة على حلها، ووضعها في حقها، لم يعرف عنه هفوة في حدائته، ولا زلة في أيام صباه»<sup>(٢)</sup>.

وقيل: بلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية يسمع المظالم بنفسه، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، وربما كان يتخرج في الليالي المظلمة الممطرة، فيُلقي بصُرر المال في المساجد لمن وجد فيها؛ بغية تعميرها بالمصلين، ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل<sup>(٣)</sup>.

وكان يذهب مذهب عمر بن عبد العزيز، في تحري الحق والعدالة، فكان

(١) «نفح الطيب» (١/٣٣٤) وانظر ابن القوطية «تاريخ افتتاح الأندلس» (ص ٦٤).

(٢) «العقد الفريد» (ج ٣ ص ٢٠٢).

(٣) «المعجب» للمراكشي (ص ١٠).

يبعث إلى الكور بقوم من ثقاته؛ للتحري عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية، فإذا انتهى إليه حَيْفٌ من أحدهم اشتدَّ عقابه<sup>(١)</sup>.

وكما ذكرنا فقد كان هشام - رحمه الله - يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز في الرعية، فكان يبعث إلى البلاد قوماً عدولاً، يسألون الناس عن سير العمال (الولاة) فيهم، ثم ينصرفون إليه بما حملوا من أنباء، فيصرف ما يصرف من أعمالهم على وجهها الصحيح، أو يزيل من العمال من لم تُعجبه سيرته.

فقد اعترض له يوماً متظلم من أحد عماله، فأحضر الشاكي، وقال له: احلف على كل ما ظلمك فيه، فإن كان ضريك فاضربه، أو هتك لك سترأ فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً فخذ من ماله مثله، إلا أن يكون أصاب منك حداً من حدود الله، فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلا أقيد (أُخِذَ) منه<sup>(٢)</sup>.

وكان هشام كريماً متواضعاً فاضلاً عاقلاً، لم تُعرف منه هفوة في حداثة سنه، ومن كرمه أنه كان يصر الأموال، ويخرج بها بين المغرب والعشاء، يتفقد المسجد، فإذا وجد أحداً يُصلي في المسجد أو لا يصلي، وضع بين يديه صرة، يقول ابن عذارى: «حتى كثرت عمارة المساجد»<sup>(٣)</sup>.

ويقول المقرئ<sup>(٤)</sup>: ومن محاسنه أنه جدد القنطرة التي يُضرب بها المثل بقرطبة - وكان قد بناها السمع الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله - فأحكم هشام بناءها إلى الغاية.

وقال يوماً لأحد وزرائه: ما يقول أهل قرطبة؟

(١) «البيان المغرب» (ج ٢ ص ٦٧).

(٢) «البيان المغرب» (٢/٦٦).

(٣) «البيان المغرب» (٢/٦٦).

(٤) «نفع الطيب للمقرئ» (١/٣٣٨).

فقال: يقولون: ما بناها الأمير إلا ليمضي عليها إلى صيده وقنصه  
فآل هشام على نفسه ألا يسلك عليها، فلم يمر عليها بعد، ووفى بما حلف  
عليه<sup>(١)</sup>.

أما ابن عذارى فيقول: فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو  
مصلحة<sup>(٢)</sup>.

وكان هشام جالساً لراحته في عليّة على النهر في حياة والده عبد الرحمن  
الداخل، فنظر إلى رجل من أهل جيان من صنائعه، يقدم عليه الهاجرة، فأنكر  
ذلك، وتوقع شراً وقع عليه من قبل أخيه سليمان، فأمر بأن يدخل عليه الرجل،  
وقال له: مهيم يا كناني، فلأمر ما جئت، وما أحسبك إلا مزعجاً لأمر ما دهمك؟  
فقال الرجل: نعم، يا سيدي، قتل رجل من قومي رجلاً خطأ، فحملت الدية  
على العاقلة فأخذ بها من كنانة عامة، وحمل على من بينهم خاصة، وقصدني  
أخوك بالاعتداء إذ عرف مكانني منك.

فمدّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قلادة عقد نفيس كان في  
نحرها، وقال له: دونك هذا العقد يا كناني، وشراؤه على ثلاثة آلاف دينار، فلا  
تخدعن عنه، وبعه، وأد عن نفسك وعن قومك، ولا تُمكن الرجل من  
اهتضامك.

فقال الرجل: يا سيدي، لم آتكَ مستجدياً، ولا لضيق المال عمّا حملته،  
ولكنني لما اعتمدتُ بظلم صراح، أحببت أن يظهر عليّ عزُّ نصرك، وأثرُ ذبِّك  
وامتعضك، فأتجمّد بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك.

فقال هشام: فما وجه ذلك؟

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) «البيان المغرب» (٦٦/٢) .

فقال الرجل: أن تكتب إلي أخيك في الإمساك عني، والقيام بدمتك لي.  
فقال هشام: أمسك العُقد، وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن  
عليه في وقت أنكره، فانزعج، وقال: ما يأتي بابي الوليد في هذا الوقت إلا لأمر  
مقلق، ائذّنوا له. فلما دخل عليه سلّم، ومثل قائماً بين يديه.  
فقال له: اجلس يا هشام.

فقال: أصلح الله الأمير سيدي، وكيف جلوس بهمّ وذل مزعج، وحق لمن قام  
مقامي لا يجلس إلا مطمئناً، ولن يقعدني إلا طيب نفس بإسعاف الأمير لحاجتي،  
وإلا رجعت على عقبي.

فقال له: حاشى لك من انقلابك خائباً، فاقعد مجاباً مشفقاً، فجلس.  
فقال له أبوه: فما الحدث المقلق؟ فاعلمه به.

فامر أن يحمل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال؛ فسرّ هشام، وأطنب في  
الشكر، وكتب الأمير إلى ولده سليمان في ترك التعرض لهذا الكنانني. ولما دخل  
الكنانني لوداع هشام قال له: يا سيدي، قد تجاوزت بك حد الأمانة، وبلغت غاية  
النصر، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة، فنُعيده إلى  
صاحبته، فأبى من ذلك، وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا<sup>(١)</sup>.

وكان زياد بن عبد الرحمن صاحب الإمام مالك في زيارة للمدينة، فوصف  
هشاماً له، فقال الإمام مالك: ليت الله - تعالى - زينّ موسمنا بمثل هذا<sup>(٢)</sup>.

وكان لهشام بصمات، أو قلّ حسنات، حيث أنه أكمل سعائف المسجد  
الجامع بقرطبة، ورفع مناراته القديمة، وبنى الميضاة العجيبة<sup>(٣)</sup>.

ومن حسناته أيضاً أنه أخرج المصدّق لأخذ الزكاة على الكتاب والسنة<sup>(٤)</sup>.

(١) «نفع الطيب» للمقري (١/٣٣٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٣٧).

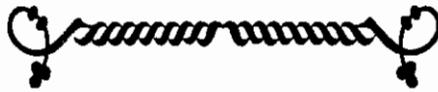
(٣) ابن عذارى في «البيان المغرب» (٢/٦٨).

(٤) «نفع الطيب» (١/٣٣٥).

ويقول أحد قضاة عصره، وهو أبو معاوية: أدركت صدراً من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت الدعة والعافية والهدوء، بحيث لم يعلم لها مثل، وكان يحضر الجنائز، ويُزاحم فيها، كأنه أحد من الناس تواضعاً.

وكان لبعض رجال هشام خصومة في دار عند القاضي مصعب بن عمران، فسجل عليه القاضي فيها، وأخرجه منها، فنهض الرجل إلى هشام، وقال له: إن القاضي سجل عليّ في داري التي أسكنها، وأخرجني عنها. فقال له هشام: وماذا تريد مني، والله لو سجل على القاضي في مقعدي هذا لخرجت عنه<sup>(١)</sup>.

وهذا يدل على أن هشاماً - رحمه الله - كان ملتزماً في حكمه بكتاب الله وسنة رسوله، وأنه لم يكن يقعده عن هذا قرابة قريب، أو صداقة صديق؛ ولهذا هدأت البلاد في عهده بما لم تألفه في عهود سابقة، ودرت فيها الخيرات، فأصبحت سابعة، لم تأخذه في الله لومة لائم، ولم يُتهم في حكمه بظلم، بل كان مثال العدل والحكمة - رحمه الله رحمة واسعة - .



(١) والبيان المغرب، (٢/٦٨) .